النص الشعري الجزائري والدراسات النقدية العربية في المشرق الإسلامي ومغربه.

د/ محمد الصالح خرفي
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة جيجل، الجزائر

مدخل:

على الرغم من أن الشعر الجزائري امتداد طبيعي للشعر العربي القديم والحديث ،ومرتبط به بنية وموضوعا وأسلوبا، وعلى الرغم أيضا من التطورات التي لحقت بالنص الشعري الجزائري المعاصر، وغنى التجربة الشعرية الجزائرية، وجودة الكثير من النصوص الشعرية ، وتعدد التجارب والأسماء، فإن هذا المتن الشعري لم يحض بالعناية الكافية من طرف النقاد العرب في المشرق الإسلامي ومغربه،ماعدا بعض الدراسات القليلة ؛نذكر منها دراسات وكتب الشاعر والناقد المصري حسن فتح الباب(1) الذي أقام بيننا في الجزائر لمدة عشر سنوات، وأثمرت تلك الإقامة الكثير من الأعمال الأدبية والتاريخية، التي أرخت للكثير من الأعلام الجزائريين–، وكذا دراسات الشاعر والناقد السوري أحمد دوغان(2) الذي اهتم بالأدب الجزائري،وقام بالتعريف به في فترة لم يسمع فيها الصوت الأدبي الجزائري، وقد أتاحت دراساته للقارئ العربي أن يطل على هذا الأدب– وقد كانت إقامته أيضا في الجزائر من بين العوامل المساعدة على تلك الدراسات والكتب – وكتب أخرى سنشير إليها لاحقا....

وقد جاءت الإشارة إلى النص الشعري الجزائري في الكثير من الكتب النقدية العربية، إشارة عابرة أو مكملة دون تركيز أو إبراز للمجهود،على خلاف ما نتعامل به نحن في الجزائر–طلبة وأساتذة– مع النصوص الشعرية العربية، المشرقية والمغربية ، والتي تلقى العناية الفائقة والاحتفال الزائد، إن طبعا أو تدريسا أو في الصحافة الثقافية والأدبية أو في المواقع الإلكترونية...فمثلا من مجموع 295 كتابا صدر عن إتحاد الكتاب العرب بسوريا في الفترة الممتدة من سنة 1996 إلى 2006 لا يوجد كتاب نقدي عن الشعر الجزائري لناقد عربي، اللهم إلا الكتب الخاصة بنقاد جزائريين–على قلة عددها–، وحتى الكتب النقدية التي قاربت النص الشعري العربي الحديث والمعاصر، لم تشر للنص الشعري الجزائري، كأن المتن الشعري الجزائري لا وجود له في الخريطة الشعرية العربية ،فمثلا:كتاب السوري خليل الموسى "قراءات في الشعر العربي الحديث المعاصر "لم يشر لأي ديوان شعري جزائري أو نص شعري جزائري، وقد تكرر الأمر نفسه في كتابه "بنية القصيدة العربية المعاصرة المتكاملة".و الشيء نفسه أيضا مع كتاب العراقي محمد صابر عبيد" القصيدة العربية الحديثة بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية"...

وإن كان النقاد العرب قد قصروا في حق الشعر الجزائري، فإنه لا يمكن بحال من الأحوال التملص من المسؤولية، من خلال عدم تبليغ النص الشعري الجزائري إلى الأخر العربي، إن توزيعا أو إهداءً ،كما أننا لا نستثمر الزيارات المتعددة للنقاد والدارسين العرب إلى الجزائر، ونزودهم بالمتون الشعرية الجزائرية، ونحفزهم على الكتابة عنا وعن نصوصنا، بقدر ما نهتم بربط علاقات وتحقيق مكاسب مادية أو مغانم آنية، أو الظفر برسالة استقبال أو زيارة ، أما النص الشعري . والأدبي عموما. فهو في آخر الاهتمامات معهم...

لكن على الرغم من هذه اللوحة السوداوية والإنكار الذاتي، هناك بعض الأعمال النقدية العربية قد احتفت بالنص الشعري الجزائري، وخصصت له حيزا ورقيا في أعمالها، وسنحاول الاقتراب من بعض هذه الدراسات النقدية العربية، لنبرز جهود هؤلاء النقاد العرب، ونبرز أيضا كيفية تعاملهم مع النص الشعري الجزائري وآليات ذلك، مركزين على عملين اثنين فقط هما:

01–"سمات الحداثة العربية في الشعر المعاصر" لحسن فتح الباب.الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة .1997

02–"الشعر الحديث في المغرب الغربي" ليوسف ناوري. بجزئه الأول والثاني والصادر عن دار توبقال المغربية سنة 2006.

وسبب التركيز على هذين العملين دون غيرهما؛ راجع إلى حداثة صدورهما، واقتصارهما على النص الشعري فقط، على خلاف ما نجده مثلا في كتاب حسن فتح الباب الأول عن الشعر الجزائري"شعر الشباب في الجزائر"–الصادر سنة 1986 مقارنة بكتابه الأخير الصادر سنة 1997– أو في كتاب أحمد دوغان "الصوت النسائي في الأدب الجزائري"– الصادر سنة 1982 –والذي تناول فيه المتن الأدبي الذي كتبته المرأة الجزائرية ولم يجعله خالصا للشعر فقط وجعله للشعر والقصة وللمرأة فقط، أو كتاب عبد العزيز شرف" المقاومة في الأدب الجزائري"الذي"رسم–فيه– صورة ليست مطابقة لواقع الأدب الجزائري"(3) وكذا كتاب نور سلمان"الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير " –المنشور سنة 1981–، وكتاب سعاد خضر"الأدب الجزائري المعاصر" –الصادر سنة 1967– التي لم تشر فيه لأي نص أدبي جزائري مكتوب بالعربية واكتفت بالنصوص الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.وكذا كتاب محمد الصالح الجابري "الأدب الجزائري في تونس"– 1991–وكتاب عبد العزيز المقالح " تلاقي الأطراف –قراءة أولى في نماذج من أدب المغرب الكبير:المغرب، الجزائر، تونس–" وغيرها من الكتب ...

زيادة على أن معظم تلك الدراسات التي تناولت النص الشعري الجزائري، قد طبعت في الجزائر مما جعل وصولها للقارئ العربي متعذرا إن لم نقل مستحيلا،والبعض منها لم يتوغل أصحابها حقيقة في النص الشعري الجزائري المعاصر،ولم يتورطوا في حب النص الشعري الجزائري، وبقيت أعمالهم تلامس أطرافه لا جوهره، تترصد وتتابع فقط هذا النص، إن لغاية تدريسية أو صحافية ...ولهذا " أحس بعض الشعراء أن هذه الكتابات على أهميتها التاريخية لم تسهم في تطوير التجربة الجزائرية ولم تسعفها في كتابة شعر جزائري لايخضع للتبعية المشرقية ولا يسقط في ثنائية المركز والمحيط التي كانت تحكم العلاقة الثقافية بين المشرق والمغرب"(4)

مع الإشارة إلى أنه هناك العديد من إلى الرسائل الجامعية– في الجامعات العربية– التي تناولت في جزء منها، النص الشعري الجزائري الحديث والمعاصر، لكنها بقيت حبيسة جدران الجامعات ورفوف مكتباتها، ولم تنشر لسبب أو لأخر ،وقد أسهم هؤلاء النقاد المشارقة بتلك الأعمال الأدبية والنقدية، خاصة المنشورة منها، "في سد الفراغ التي كانت تشكو منه الساحة الأدبية "(5)والثقافية في الجزائر، في فترة السبعينيات وبداية الثمانينيات.

ولطبيعة المقال لا يمكن الإشارة إلى كل تلك الكتب والأعمال النقدية ولذلك سأكتفي بكتابين اثنين، كما أشرت سابقا.

لقد تمكن كل من الشاعر والناقد المصري حسن فتح الباب، والناقد المغربي يوسف ناوري من التوغل حقيقة في مجاهل ومعالم النص الشعري الجزائري الحديث والمعاصر، بحكم إحاطتهما بهذا المتن ومحاولة مقاربته دون حسابات أو خلفيات، من أجل إبراز قيمة هذا النص الشعري،ومقارنته بالنصوص الشعرية العربية الأخرى، ولأن"العلاقة بين النص والناقد تقوم على نوع من التكامل والوظيفة المشتركة قصد تأصيل فعالية ثقافية محددة والتعبير عن واقع مشترك" (6) فقد حاول كل ناقد التركيز على مجموعة من النصوص أو الكتابات التي تمثل الظاهرة الشعرية الجزائرية .

فالنقد هو "معرفة بكل تجليات النص الأدبي سواء مضمونية أو بنائية وهذه المعرفة لا تأتي دفعة واحدة ، بل يتم إنتاج هذه المعرفة وفق مراحل معينة يتحكم فيها المنهج المتبع من قبل الناقد وبالرجوع باستمرار إلى النص الأصلي لتطوير العناصر النامية فيه والتي تشكل معرفة معينة أو للتأكيد على مستوى من المستويات" (7) وهو ما سوف نبرزه بتوضيح طريقة التعامل النقدي العربي مع النص الشعري الجزائري، لأن هذا"النص كأي معطى ظاهراتي ، يتوقف وجوده الموضوعي على خبراتنا الجمالية في إدراكه وتبين الآليات والإستراتيجيات التي اشتغلت بها بلاغيته"(8) وهذه الإستراتيجيات يمكن الوصل إليها بممارسة نقد النقد، وهو ما نحاول الوصول إليه في هذه المقاربة .

01–كتاب "سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر"لحسن فتح الباب

ستكون البداية مع هذا الكتاب لأنه الأول في الصدور، مقارنة بالمتن النقدي الثاني الذي نعتمده هنا، وعلى الرغم من عدم تخصيصه للمتن الشعري الجزائري فقط، إلا أننا أردنا أن نشير إليه لأنه تناول بعض النصوص الشعرية الجزائرية في سياق تناوله للعديد من النصوص الشعرية العربية المتعددة من المشرق إلى المغرب، زيادة على صدوره في مصر، مما سيتيح وصوله إلى الكثير من الدول العربية، ويعرفهم به ويجعل المقارنة ممكنة، ويفتح النافذة أمامهم للتوغل أكثر فيه، وهذا جهد يحسب للناقد المصري حسن فتح الباب، الذي انفتح على كل التجارب الشعرية العربية دون إقصاء، على خلاف غيره من النقاد العرب، الذين تعاملوا مع النصوص المغاربية على أنها تابعة للمركز المشرقي ولا تستحق الدراسة والتنويه، أو هي من سقط المتاع.

يستهل حسن فتح الباب كتابه" سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر" قبل الوصول إلى القسم المخصص لشعراء الجزائر بالتأكيد على المسوغات التي جعلته يهتم بالنص الشعري المغاربي، والاعتراف بشعرية النص المغاربي بقوله: " الدراسات لم تول وجهها شطر الشعر في المغرب العربي إلا القليل النادر الذي لا يقاس عليه .. على الرغم من ازدهار الفن الشعري في المغرب والجزائر وتونس ازدهارا يستحق التقدير والمتابعة، فالأسبقية في التاريخ لا تنفى واجب الإنصاف"(9) وهي حقيقة لا يمكن إنكارها فشعر المغرب العربي حلقة مكملة للشعر العربي الحديث والمعاصر، وقد غفل الكثير من النقاد المشارقة عن هذا المتن الشعري ،وإن تناولوه تناولوا المشهور منه فقط،وقد حاول حسن فتح الباب أن يسد هذا الفراغ ويستكمل النقص، حتى نضع جميع النصوص الشعرية العربية في مختبر الدرس والنقد ونقارن بين بعضها البعض ونعرف التجارب الرائدة للاستفادة منها،و نكشف التجارب المقلدة ، المستنسخة المشوهة للأصل لنتجاوزها.وعلى الرغم من عدم تخصيص كتاب" سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر" للشعر الجزائري، فقد حضر هذا النص في سياق تناوله للعديد من التجارب الشعرية العربية ، حيث حاول حسن فتح الباب أن يوحد بين أقطار الأمة العربية –على المستوى النقدي–فجاء كتابه شاملا لـ 24 شاعرا من 12 دولة عربية وهم كالتالي:

-5 شعراء من مصر (كمال نشأت، ملك عبد العزيز، عبد المنعم عواد يوسف، محمد البخاري، أحمد لطفي)

-3 شعراء من فلسطين (محمود درويش، سميح القاسم، محمد الأسعد)

- شاعران من سورية (على كنعان، محمد عدوان)

- شاعران من لبنان (محمد علي شمس الدين، سعيد فرحات)

- 4 شعراء من الكويت (أحمد مشار العدواني، خليفة الوقيان، عبد الله العتيبي، جنة القريني)

- شاعر من السعودية (غازي القصيبي)

– شاعر من البحرين (علوي الهاشمي)

- شاعر من العراق (سعدي يوسف)

- شاعر من اليمن (عبد العزيز المقالح)

- شاعر من السودان (جيلي عبد الرحمان)

-3 شعراء من الجزائر (أبو القاسم سعد الله، مفدي زكريا، عمرا زراج)

- شاعر من المغرب (محمد علي الرباوي)

وقد حضي المتن الشعري الجزائري بـ 46 صفحة من مجموع 502، و03 شعراء، وجاءت الجزائر في المرتبة الثالثة مع فلسطين بعد مصر والكويت.

وقد " جاء اختيار الشعراء وفقا لمعيارين يتعلق أولهما بالمضمون الذي ارتأيناه وهو تعبير الشاعر عن النفس العربية في أشواقها وهمومها وتطلعاتها إلى غد أفضل ومستقبل مرموق، يسهم في ركب التقدم الإنساني للفرد والجماعة. أما المعيار الثاني، فهو يتعلق بتوافر شروط الإبداع الشعري في تصوير هذا المضمون المعبر عن الذات المفردة والكيان القومي، ومن البديهي أننا لا نفصل بين هذين المعيارين، لأن المضمون والصياغة الفنية لغة وإيقاعًا، وحدة واحدة لا تتجزأ."(10)

وبالعودة إلى الفصل الحادي عشر المخصص لشعراء من الجزائر في كتاب "سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر" لحسن فتح الباب، نجد الدراسات التالية:

1– النفس الملحمي في قصيدة تاريخية للشاعر مفدي زكريا.

2– العزف على وتر المأساة والبطولة في ديوان الزمن الأخضر لأبي القاسم سعد الله.

3– – أسلوب تيار الوعي في قصيدة تيزي راشد للشاعر عمر أزراج.

ولنا أن نتساءل عن سبب اقتصار الناقد المصري حسن فتح الباب على هذه الأسماء الشعرية فقط،– مفدي زكريا، أبو القاسم سعد الله، عمرا زراج– وبهذا الترتيب بالذات، السبب الأول في رأينا، هو أن هؤلاء يمثلون المشهد الشعري الجزائري في مرحلة معينة؛ حيث يشكل الشاعر مفدي زكريا في الحساسية الشعرية الجزائرية الحديثة الركيزة الأساسية،وأبو القاسم سعد الله نقطة التحول في المسار الشعري الجزائري المعاصر، وعمر أزراج التغيير البنائي الشعري الكلي الشامل للنص الشعري، زيادة على أنهم يشكلون سلسلة متصلة في حقل الإبداع الجزائري، على الرغم من خصوصيات كل شاعر أما السبب الثاني فهو المعرفة المسبقة بأشعار هؤلاء – خاصة أشعار مفدي وسعد الله–في العالم العربي وكذا بالنسبة للناقد الذي أقام بيننا في الجزائر واطلع على كل المجاميع الشعرية لهؤلاء، أما السبب الثالث فهو هدف الناقد المحدد في التعريف بالنص الشعري الجزائري، ولاستحالة تناول الجميع اختار بعض الأسماء التي تمثل المشهد الشعري الجزائري، زيادة على اقتصاره في التناول والنقد على قصيدتين وديوان شعري. أما السبب الرابع فهو عدم الإحاطة الشاملة بالتجربة الشعرية الجزائرية ومعرفة الأصوات الجديدة التي أكملت المسيرة الشعرية في الجزائر، زيادة على سنة طبع الكتاب–1997–حيث تسبق الكتابة بسنوات زمن النشر الورقي.

وإذا عدنا مجددا إلى الفصل الحادي عشر المخصص لشعراء من الجزائر في الكتاب، وجدنا حسن فتح الباب يبدأ محترما السبق التاريخي للشعراء، ولذلك بدأ بالشاعر مفدي زكريا، وقد تمثلت دراسته عن مفدي في مقطع من إلياذة الجزائر التي تحدث فيها عن مدينة بجاية (10 أبيات).وكذا قصيدة بجاية التي انشدها بمناسبة انعقاد الملتقى الثامن للفكر الإسلامي

فيها–سنة 1974–والتي بلغت مائة بيت وبيت (101) وقد جعل الناقد حسن فتح الباب من قصيدة بجاية " شاهدًا على أن منزلة مفدي زكريا في الشعر العربي بالجزائر"(11)بل وجعله أحمد شوقي الجزائر، أو هو حافظ إبراهيم الجزائر، بقوله أن مفدي " يقترب كثيرًا من الأفق الشوقي من حيث المقدرة على الصياغة المشرقة المتينة وعلى التفنن في الصور وفي النظم التاريخي"(12)

وقصيدة بجاية لمفدي تأريخية، تبرز الجمال الطبيعي للجزائر،وحب المكان الجزائري لشاعر جزائري، ولذلك ركز الناقد على هذا الجانب وحاول إظهاره في الدراسة وعليه جاءت الدراسة في الأقسام التالية:

1- من إلياذة الجزائر إلى قصيدة بجاية (المقطع الأول).
2- بين العزف على الوتر الشاجي والنظم التاريخي (المقطع الثاني).
3- تصوير الصراع وملاحم الكفاح البطولي(المقطع الثالث).
4- من سعير الحرب إلى جنة الشعر الشعراء.
5- وفي المقطع الأخير يصيب مفدى زكريا.

وقد قارب الناقد قصيدة بجاية مقاربة موضوعاتية وبشيء من العمومية" أما المقطع الثاني من تلك القصيدة التي أوحت إليه بها مدينة بجاية فهو يفتتحه بنداء يعود به إلى روح الشعر التي افتقدناها في النصف الثاني من المقطع الأول، ولا يرجع ذلك إلى صيغة الخطاب الجياش المشاعر لهذه المدينة فحسب، بل إلى تفجيره عبير الماضي وما ينطوي عليه من حنين وإكبار للمحبوب وخوف عليه وهو يعمق هذا الحنين بالعزف على وتر الأندلس الشاجي والتذكير بالصلة التاريخية بين بجاية والفردوس المفقود ..."(13) جاعلا من قصيدة بجاية اختصارا لما مضى،دون تصنع على خلاف بعض الشعراء الذين يقعون في التصنع عند الحديث عن التاريخ أو الإشارة إلى الماضي، فمفدي زكريا عند حسن فتح الباب شاعر يوظف في شعره الموروث التاريخي والأدبي دون تصنع، لأن موضوعاته ومضامينه مستقاة من هذا الكنز المعرفي في الأغلب الأعم، ولأن شعره انعكاس لبيئته وواقعه الاجتماعي،" لذلك لا غرابة أن نجد هذا التعدد الموضوعاتي في شعره وهذا الزخم التاريخي في قصائده، وإن ركز الناقد على قصيدتين فقط، أو قل قصيدة واحدة بصياغتين مختلفتين،فإنه أبرز شاعريته، من خلال الاقتراب من الجوانب الجمالية والفنية في شعره، وجعله من كبار الشعراء في الوطن العربي، وتبقى هذه الدراسة قراءة أولى حاول أن يقدم فيها " شيئًا من الجدة في تناول القيم الجمالية في شعره والكشف عن العلاقة العضوية بين الشكل والمضمون عنده وهو الجانب الذي لم تتناوله الدراسات التي كتبت عنه"(14)لتضاف هذه الدراسة إلى الدراسات الأدبية والنقدية التي تناولت الشعرية الجزائرية.

وإشارة حسن فتح الباب للجانب التاريخي في شعر مفدي هي أشارة تكرر ما قيل وتثبت مدى غوص الشاعر في العمق التاريخي الجزائري والعربي وهذا ليس غريبا لأن " تخليد الشاعر لذكرى بلاده هو تخليد لذاته كفرد داخل هذه البلاد. فالشاعر شكل من أشكال التعبير كأنه وسيلة من وسائل تثبيت التاريخ والقبض على اللحظة الهاربة المنزلقة، إن الشعر من هذا المنظور هو تجاوز الراهن والدخول في الديمومة" (15)

أما دراسة الناقد حسن فتح الباب الثانية في كتابه"سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر"المخصصة لشعراء من الجزائر، فقد كانت بعنوان" العزف على وتر المأساة والبطولة في ديوان الزمن الأخضر لأبي القاسم سعد الله".حيث انتقل من الجزء – مع مفدي زكريا–إلى الكل – مع أبي القاسم سعد الله–من خلال تناوله ديوانه الشعري "الزمن الأخضر" وقد جاءت

– بعد زمن– في كتاب مستقل لحسن فتح الباب بعنوان"شاعر وثورة قراءة في ديوان الزمن الأخضر لأبي القاسم سعد الله "وقد قسم الدراسة التي جاءت في "سمات الحداثة" إلى ثلاثة أجزاء هي:

1– حقل الزيتون وجميلات الثورة.

2– ليل وشوق والجذور الصحراوية.

3– إصرار.

والحقيقة أن عنوان الدراسة كان شاملا ولم ينطبق على الفعل النقدي الحقيقي، حيث اقتصر الناقد على دراسة ثلاثة قصائد شعرية فقط من الديوان وهي:حقل الزيتون، ليل وشوق، إصرار.وهي كلها قصائد كتبت في الخمسينيات من القرن الماضي في مصر.

وقد كانت الدراسة عبارة عن مقاربة لتلك النصوص مع إبراز المناسبة والظروف العامة لكتابتها وتحليل مضامين القصائد وهو الخط الذي رأيناها في دراسته السابقة عن نص بجاية لمفدي زكريا.

وقد وصل الناقد حسن فتح الباب إلى نتيجة مفادها أنه" على الرغم مما يلحظه الناقد من تأثر الشاعر بقصائد مشهورة لشعراء مصريين استوحوا فيها الأوراس واتخذوه رمزا للثورة الجزائرية والثورات العربية عامة، فإن التأثر لم يبلغ حد التقليد ذلك أن سعد الله يمتاز بقدرته على الاستيعاب الشامل لما يقرأ لمختلف الشعراء دون النقل أو الاقتباس من أحدهم على خلاف في ذلك مع بعض الشعراء الشباب الذين أتوا بعده في السبعينات لانبهارهم الشديد برواد القصيدة العربية الحديثة كما أوضحنا في تحليلها بعض النماذج الشعرية لهم في كتاب شعر الشباب في الجزائر الواقع والآفاق"(16)

ولكن الناقد لم يقارن بين هذه النصوص والنصوص الأخرى الموجودة في الديوان نفسه أو الديوان الثاني، مما جعل الدراسة قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية عن التجربة الشعرية لأبي القاسم سعد الله، كما لم يشر الناقد إلى تحول سعد الله من الإبداع الشعري إلى الكتابة التاريخية.

أما دراسته الثالثة "أسلوب تيار الوعي في قصيدة تيزي راشد للشاعر عمر أزراج" فقد قسمها أيضا تقسيما ثلاثيا مثل سابقتها، فجاءت بالعناوين الفرعية التالية:

أ–من القرية الجبلية إلى باريس

ب– الرحيل إلى المرفأ المجهول.

ج–تداعي ذكريات الطفولة.

وهي الدراسة الثالثة والأخيرة في الفصل الحادي عشر، شعراء من الجزائر، أبرز لنا فيها الناقد حسن فتح الباب، تجربة شعرية جزائرية جديدة مختلفة نوعا ما عن التجارب الشعرية الأخرى السابقة التي أشار إليها في هذه الدراسة، وقد عاد مثلما بدأ، عندما ركز على قصيدة تيزي راشد لعمر أزراج التي أبرز فيها أسلوب تيار الوعي الذي يلتقي فيع الروائي مع الشاعر، كما استقصى تجربة الاغتراب وعذاباته حيث " يتبين من الاطلاع على الشعر الجزائري الحديث أن تجربة الاغتراب وعذاباته تشغل مكانا بارزا في سجله، ومن بين الشعراء الشباب المعاصرين ينفرد الشاعر أزراج عمر برؤيته الخاصة مما يرجع إلى استلهامه تجربته الذاتية لا تجارب الآخرين" (17)

وقد اختار الناقد حسن فتح الباب هذا النص دون غيره من النصوص الأخرى للشاعر لأن " قصيدة تيزي من أهم وأجمل القصائد في ديوان الشعر العربي في الجزائر عامة وفي ديوان هذا الشاعر [ازراج] وعنوانه وحرسني الظل خاصة وهو يصور فيها مأساة الهجرة والاغتراب عن الوطن"(18)

وللأسف على الرغم من اختياره لنص شعري واحد فقط للشاعر الجزائري عمر أزراج، فإنه استقصى ظاهرة تيار الوعي فيها فقط، ولذلك جاءت الدراسة مقتضبة وقصيرة، ركز فيها أيضا على استجلاء العناصر المضمونية المتعلقة بالتشرد والغربة والهجرة وكل ما يدخل في هذا الحقل الشعري، الذي اتسمت به تجربة عمر أزراج، من خلال عودته للماضي ولذكريات الطفولة.

ولكن الحكم النقدي الأخير الذي جاء في نهاية دراسته لأسلوب تيار الوعي في قصيدة تيزي راشد لعمر أزراج،كان شاملا وعاما لكل نصوصه" تتوهج روح المسافر الشريد في تيار قصائد أزراج عمر التي ضمنها ديوانه وحرسني الظل مهما اختلفت حوافزها ومضامينها كأنها سمة أو وشم له" (19)

مما جعل القارئ يقع في حيرة من أمره، وهو يواجه هذا النقد،وكان بالإمكان أن يوسع مجال الدراسة للعديد من النصوص الأخرى للشاعر الموجودة بديوانه "وحرسني الظل" ويدلل بها نصيا، حتى يرفع اللبس، ويؤسس لحكمه النقدي على بينية نصية وقرائن لغوية، ويسهل وييسر للقارئ العربي الذي يجهل الكثير من الخصوصيات الجزائرية، الدخول بخلفية معرفية واضحة إلى نصوص الشاعر الجزائري عمر أزراج ونصوص غيره.

وعلى الرغم من كل ذلك تبقى هذه الدراسات النقدية التي قدمها الناقد المصري حسن فتح الباب في كتابه " سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر" وفي كتبه الأخرى عن الشعر الجزائري،لبنة مهمة في مسار دراسة المتن الشعري الجزائري المعاصر ويستحق كاتبها كل الشكر والتقدير والتنويه،والإشارة إليها حتى نصحح المسار ونستفيد من التجارب الشعرية العربية الأخرى وكذا من الدراسات النقدية العربية لتطوير النص الشعري الجزائري المعاصر.

02–كتاب" الشعر الحديث في المغرب العربي" ليوسف ناوري

وهو الكتاب الثاني الذي نعتمده في هذه المقاربة النقدية التي تحاول إبراز الأعمال النقدية العربية المشرقية والمغربية والتي تناولت النص الشعري الجزائري بالدرس والنقد والتأريخ،والتي وقفنا في فقرات سابقة مع كتاب "سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر" وها نحن نقف لنمارس نقد النقد مع الكتاب الثاني وهذا الكتاب هو"الشعر الحديث في المغرب العربي" للناقد المغربي يوسف ناوري، الذي نحسبه أكثر اقترابا– من سابقه– من الظاهرة الشعرية الجزائرية بحكم مزاوجته بين الدراسة النقدية والتأريخ الأدبي للنص الشعري الجزائري الحديث والمعاصر.

وقد جاء الكتاب في جزأين اثنين ، مكملين لبعضهما البعض في تتبع الحركة الشعرية في أقطار المغرب العربي– المغرب، تونس، ليبيا، الجزائر، موريطانيا– في محاولة لرد الاعتبار للنص الشعري المغاربي الذي لم يلتفت إليه في الدراسات النقدية المشرقية، وجاء رد الاعتبار من ناقد مغربي، حاول إحداث التوازن والتناول النقدي، وإن بدا اهتمامه بالنص الشعري المغربي واضحا من خلال الحيز الورقي الذي خصصه للشعر المغربي وعدد الشعراء الذين تناولهم .

فعلى الرغم من محاولة الإحاطة بالتجربة الشعرية المغاربية المتنوعة وإعطاء الصورة الحقيقية والواضحة لمسار التغييرات التي حدثت في الشعر المغاربي وإبراز التحولات الفنية والبنائية المتعددة، فإنه لم يوازن أو بالأحرى لم يعدل بين التجارب

الشعرية المغاربية؛ أولا لخصوصية تجربة كل بلد وثانيا لعدم اطلاعه على كل التجارب الشعرية، وثالثا لغنى التجربة الشعرية المغاربية، والتي لا يمكن الإحاطة بها في كتابين اثنين .

وإذا عدنا إلى متن الكتاب وتتبعنا الحيز الورقي المخصص للنص الشعري الجزائري وجدناه لا يمثل إلا08% ،فمن أصل 286 صفحة في الجزء الأول كان نصيب الشعر الجزائري 43 صفحة،وفي الجزء الثاني 23 صفحة من أصل 226 صفحة، أي بمجموع 66 صفحة من أصل 512 صفحة وهي نسبة قليلة من الكتاب بجزأيه ومجحفة في حق غنى الشعر الجزائري ما دام الكتاب لأقطار المغرب العربي .

أما إذا رجعنا إلى متن الكتاب مجددا فإننا نجده قد ركز على بعض الأسماء الشعرية الجزائرية دون غيرها وهذه الأسماء هي:

1-محمد العيد آل خليفة. 2- رمضان حمود.3- عبد الله شريط.4- عبد الله حمادي.

وهي الأسماء نفسها التي ترجم لها في نهاية الجزء الثاني، من أصل 14 شاعرا من المغرب العربي.

كما جاء ذكر العديد من الشعراء الجزائريين في ثنايا الكتاب – في الجزء الأول والثاني– بحسب السياقات والمواضيع المشار إليها، ومن الذين أشار إليهم للتدليل على ظاهرة شعرية معينة: إبراهيم أبو اليقظان، عمر أزراج، محمد الصالح باوية، عبد الحميد بن هدوقة، مبارك جلواح، أحمد حمدي، صالح خرفي، عبد العالي رزاقي، مفدي زكريا، محمد الأخضر السائحي، محمد الأخضر عبد القادر السائحي، أبو القاسم سعد الله، الأخضر شودار، أحمد الغوالمي، مصطفى الغماري، علي ملاحي، عزالدين ميهوبي، نجيب أنزار، محمد بن رقطان، بلقاسم خمار، مبروكة بوساحة، أبوبكر زمال، ميلود خيزار، العقون، أحمد سحنون.

أما من حيث النصوص الشعرية– في المجال التطبيقي– فقد اعتمد على نصين اثنين؛ الأول "يا نفس" لمحمد العيد الخليفة، عندما تطرق للجانب التقليدي في الشعر الجزائري، والثاني " كيف جف الحب من كل مكان؟"، لعبد الله شريط عند تطرقه للجانب الرومانسي .

كما قابل بين تجربة عبد الله شريط وتجربة الشابي في تونس وتجربة عبد الكريم ثابت في المغرب، من خلال عتبة العنوان وبناء الخطاب وترتيب المقطع، وعناصر لبناء متخيل الحب، ومسار دلالية النص.

فمن خلال النقد والدرس والتتبع والإشارة، أرخ الناقد المغربي يوسف ناوري للشعر الجزائري عبر مراحله المختلفة عبر العديد من العناوين:

*التقليدية وبداية الشعر الجزائري الحديث– مقدمات تقليدية، شعر التقليدية في الجزائر–

*ممارسات رومانسية– جذوة التاريخ والأحاسيس، شعراء رومانسيون، حدود الرومانسية، المفهوم الرومانسي للشعر، رمضان حمود الحرية ومستقبل الشعر، الأفق الآخر للقصيدة، نقض التقليدية والأنموذج القديم، نقد أنموذج الشعر القديم، رمضان حمود وعتبة الإبدال الرومانسي.

وقد خص في الجزء الأول الشاعر رمضان حمود بإشارة خاصة دون غيره من الشعراء الجزائريين باعتباره من أول الداعين لتحديث القصيدة العربية في الجزائر.كما جاء ذكر بعض الكتب النقدية الجزائرية التي اعتمد عليها يوسف ناوري للإحاطة بالشعر الجزائري وهي: الشعر الجزائري الحديث لصالح خرفي، والشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية لمحمد ناصر .

أما في جزئه الثاني الذي كان الجزء الكبير فيه للحديث عن تجربة شعر التفعيلة فقد حاول الناقد المغربي يوسف ناوري على مدار 14 صفحة التأريخ للقصيدة الحرة في الجزائر عبر تجارب شعراء الثورة وشعراء مرحلة السبعينات ومرحلة الثمانينات وإعطاء لمحة ولو مختصرة لواقع الشعر الجديد (شعر التفعيلة) في الجزائر. مؤكدا أنه " بعامل الانفتاح على الممارسات الشعرية والنظرية في المركز وعلى الخطاب النقدي والتنظيري الذي صاحب ظهوره فسر توجه الشعراء الجزائريين إلى الشعر الحر، إلى هذا العامل انضافت تلك العوامل التي هيأت لممارساته في المركز انطلاقتها ضمن الشروط الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بالشاعر وحدوث انخراطه في معركة التحرر لذلك جاءت الممارسة بحثا عن حرية مفتقدة يحاولها الشاعر في القصيدة تارة وبحثا عن مشروع شعري جماعي هارب من قسم التاريخ والخطاب الثوري الرسمي ومن مفهوم الثورة ذاته تارة أخرى"(20)

كما خص الناقد يوسف ناوري، الشاعر عبد الله حمادي بوقفة خاصة عنونها:

* عبد الله حمادي وتحديث القصيدة المعاصرة .من الصفحة 82 إلى الصفحة 90 من الجزء الثاني، نظرا لخصوصية تجربته وإسهاماته المتعددة في تحديث الشعر الجزائري والتنظير له من خلال كتاباته المتعددة، التي تتصدر دواوينه أو كتاباته النقدية المتنوعة وعليه " يمثل عبد الله حمادي استثناء ضمن تاريخ الشعر العربي في الجزائر، فقد حافظ على مساره النصي الذي عضده بدرس تنظيري رافق القصيدة بأسئلة المراحل والتحولات التي عرفها، في التباس الشعري بالمعيش تارة، وفي استعارة الخطاب الصوفي ومجاز العبور إلى لغته بحثًا عن إيقاع فردي خاص تارة أخرى" (21)

وقد ركز يوسف ناوري على المقدمات النظرية التي كتبها حمادي لدواوينه الشعرية وكتابه "الشعرية العربية بين الإتباع والابتداع، وحاول من خلاله إبراز رؤية الشاعر عبد الله حمادي للشعر ،" فهم عبد الله حمادي علاقته بالشعر الحديث بروح التجديد التي انفتح عليها باحتكاك مع الشعر الغربي في أبعاده وخلفياته الحضارية، غير أن محاولته الاقتراب منه بحس الممارسة والدراسة النقدية تقيدت بهاجس الانتماء والمحافظة على الهوية الذي كان موجها للخطاب النظري وهو يتلمس طريق التحرير"(22)

وقد استرسل الناقد المغربي يوسف ناوري في عرض رؤية الشاعر عبد الله حمادي معتمدا على مقالاته وكتاباته ف" بقدر ما يجسد الشعر المعاصر في تصور عبد الله حمادي التعبير عن الواقع بقدر ما يفهم في ضوء توفيق هذه الممارسة في بناء معمارية قصيدة تعيد تشكيل الواقع وصياغته... فرغبة التحرر باعتماد اللغة وبناء قصيدة معاصرة ومسعى استكشاف الأبعاد اللاواعية في لا عقلانية العبارة وفي الطرف الصوفية للممارسة، لم يتعارض عنده مع مبدأ رأى من خلاله القصيدة المعاصرة استمرارًا للقصيدة العمودية وإعادة بناء لها بلوازم حديثة ."(23) وهي طروحات موجودة في كتابات الشاعر عبد الله حمادي لم يفعل أي شيء معها يوسف ناوري، سوى إعادتها وإبراز جهد حمادي في تحديث القصيدة العربية المعاصرة دون نقد أو تعليق.

ولم يتطرق يوسف ناوري إلى النقاد الجزائريين الآخرين الجزائرية الذي أشاروا إلى النص الشعري وتناولوه بالدرس والنقد، من أمثال:حسين خمري، أحمد يوسف، عبد الملك مرتاض، يوسف وغليسي ...

كما أنه في جزئه الثاني وفي فصله الثالث المعنون بـ" نص الشعر المعاصر والكتابة" المخصص للدراسة التطبيقية والعينات الشعرية لم يورد أي نص شعري جزائري معاصر واكتفى بالنصوص المغربية والتونسية، والليبية فقط دون الإشارة للنماذج

الشعرية الجزائرية كأننا لا نملك ما يمثل به، على خلاف مع فعله عند حديثه عن التقليدية والرومانسية في الجزائر في الجزء الأول من الكتاب.

وقد يعذر الناقد على ذلك بحكم شمولية دراسته وتركيز اهتمامه على النص الشعري المغربي لأن الكتاب في أصله أطروحة جامعية، مقدمة لنيل درجة علمية في جامعة مغربية لا جزائرية، زيادة على عدم تحصله على المادة الشعرية الجزائرية الكافية.

وعلى الرغم من ذلك تبقى مساهمة الناقد المغربي يوسف ناوري مهمة في مسار التأريخ للشعر الجزائري،وتعطي صورة تقريبية عن حركة الشعر المعاصر في الجزائر للقارئ المغاربي والعربي.

خاتمة:

من خلال هذه المقاربة لكتابين نقديين، الأول "سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر" للناقد المصري حسن فتح الباب، والثاني " الشعر العربي الحديث في المغرب العربي " للناقد المغربي يوسف ناوري، يمكن الخروج بالخلاصات التالية :

حسن فتح الباب ركز على نصوص بعينها لشعراء مختارين تبعا لرؤية ما، أما يوسف ناوري فقد قدم العديد من النماذج الشعرية والأسماء، ليبرز مدى مواكبة الشاعر الجزائري للتغيرات والتطورات التي حصلت في شعر المغرب العربي، وهو بذلك يؤرخ ويدرس وينقد في الوقت نفسه.

القضايا التي أثارها يوسف ناوري متعددة ومتنوعة تبعا لطبيعة الدراسة أما قضايا حسن فتح الباب فهي قضايا مرتبطة بالنص المدروس فقط.

طبيعة النقد الموجه مختلف وكذا الموقف النقدي لكل دارس، فإذا كان حسن فتح الباب حاول أن يبرز الجانب الموضوعاتي والجمالي في النصوص الشعرية الجزائرية التي تطرق إليها، فإن يوسف ناوري تناول النصوص الشعرية الجزائرية بطريقة حداثية من خلال عتبة النص، بناء الخطاب، دلالية النص، عتبة العنوان،وفضاء النص ...

لكل نص قراءة ولكل ناقد قراءة خاصة به، المهم هو الوصول إلى جوهر النص وكشف جمالياته.وهو حاول كل ناقد الوصول إليه واختلفت الإجراءات المنهجية، ورؤية كل واحد للنص الشعري الجزائري.

هوامش الدراسة:

1- حسن فتح الباب حسن ولد في لقاهرة في حي شبرا الشعبي في 1923/11/27 . حصل على درجة الدكتوراه في القانون الدولي من كلية الحقوق في جامعة القاهرة .أوفد إلى الخارج في بعثات دراسية، وكانت رحلاته من مصادر تجربته الإبداعية .تدرج في مناصب الشرطة حتى رقي إلى رتبة لواء، ثم أحيل إلى المعاش سنة 1976م .تفرغ منذ إحالته إلى المعاش للإنتاج الأدبي .عمل في سلك التدريس الجامعي في مصر والجزائر .عضو اتحاد الكتاب وجمعية الأدباء ولجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة .من إنتاجه الأدبي1- رؤية جديدة لشعرنا القديم، 1984. 2- شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والآفاق،3.1985- شاعر وثورة قراءة في ديوان الزمن الأخضر لأبي القاسم سعد الله 1986. 4- مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، 1997. 5-حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، 1997. 6-حسن عبد الله القرشي شاعر الجزيرة العربية، 1997م .7-سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر،1997. 8-المقاومة والبطولة في الشعر العربي من غزوة بدر إلى ملحمة البوسنة، 1998م .كما صدر له أربعة عشر ديواناً شعرياً أولها "من وحي بور سعيد" 1957، وأحدثها "الخروج إلى الجنوب" 1998 .

2– ولد الشاعر أحمد دوغان عام 1946 في قرية"فافين" (حلب).تخرج في"معهد إعداد المدرسين" بحلب، (فرع اللغة العربية وآدابها) عام 1970 وعمل مدرساً لمادة اللغة العربية وآدابها في المرحلتين الإعدادية والثانوية في حلب(1971–1977)، وعضو البعثة التعليمية السورية في الجزائر(1977–1984)، ثم رجع إلى تدريس مادة اللغة العربية وآدابها في ثانويات حلب. أُحيل إلى التقاعد لأسباب صحيّة عام 1994م.من مؤلفاته:أ– –ساهر يرعى النجوم– شعر– 1972. ب–سيمفونية تشرين– شعر– 1975 .ج–مقالات عن أدبنا المعاصر، 1977.د–الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر– 1982.

هـ–الريح أنا– شعر– 1986. و–شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، 1989. ز–المرايا في مواجهة الذاكرة– شعر– 1994

3– أحمد يوسف :يتم النص والجينيالوجيا الضائعة"تأملات في الشعر الجزائري المختلف"، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط 01 2002، ص .52

4–المرجع نفسه.ص 78.

5–المرجع نفسه. ص78.

6–حسين خمري : بنية الخطاب الأدبي .منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين،الجزائر،ط 01، دت، ص 34.

7–المرجع نفسه. ص 38.

8–رشيد يحياوي:الشعر والنثري –مدخل لأنواعية الشعر–منشورات اتحاد كتاب المغرب،المملكة المغربية، ط1، 2001.ص189.

9–حسن فتح الباب: سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط01، 1997، ص 07.

10–المرجع نفسه.ص 08.

11–المرجع نفسه.ص 430.

12–المرجع نفسه.ص 431.

13–المرجع نفسه.ص 434.

14–المرجع نفسه.ص 443.

15–حسين خمري: الظاهرة الشعرية العربية – الحضور والغياب– منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط1، 2001.ص38.

16–حسن فتح الباب: سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر. ص 452.

17–المرجع نفسه.ص 465.

18–المرجع نفسه.ص 465.

19–المرجع نفسه.ص 470.

20–يوسف ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي ج 2.دار توبقال،المغرب، ط1، 2006،ص 40.

21–المرجع نفسه .ص 82.

22–المرجع نفسه .ص 87.

23–المرجع نفسه.ص 89.